الأخلاق أساس الحضارة

غراب مصطفى

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

ملخص:

إن معضلة الأمة العربية الإسلامية في الوقت الراهن متعددة المجالات، حتى أن الدراسات اختلفت في تناولها وإيجاد الحل لها فساحت في الجانب السياسي أو الاقتصادي وكل حسب التوجهات والقناعات والامـلاءات من الداخل أو الخارج. وإن أصاب الكل في تشخيص الداء لكنهم لم يصلوا بعد إلى الدواء الشافي الكافي، فحلولهم مجرد مسكنات ومهدئات للألم وأعراضه. ومازلنا نتخبط في الفوضى والتخلف بالرغم من تخلصنا من أغلال المستعمر البغيض منذ عقود خلت، وبالرغم من امتلاكنا لجميع

المقومات المادية والبشرية. فانبهرنا بحضارة الغرب وماديتها إلى درجة الذوبان حتى انسلخنا عن هويتنا وفقدنا بذلك إنسانيتنا فأصبحنا مثلا في الفساد والانحلال، وهذا واقع أمتنا الذي لا يخفى عن الخاص والعام. فنحن ندين بالإسلام وهو رسالة عالمية إنسانية تدعو إلى تزكية النفس وطلب الفضائل والتحذير من الرذائل، أي الحرص على الخير وتجنب الشر. وعليه تكون حياة الإنسان منتظمة وفق قانون إلهي محكم يشمل الإيمان والسلوك وينعكس ذلك في تكوين مجتمع قوي. فالأخلاق الفاضلة هي التي تعصم المجتمعات من الضياع وتصون الحضارة والمدنية من الانهيار.

الكلمات المفتاحية:

الحضارة، الأخلاق، العقل، المجتمع، المنفعة، الغرب، الإسلام.

1_ مقدمة:

الأخـــلاق هـــي روح جميـــع الشـــعوب، فجميـــع الأديـــان دعـــت إليهـــا ورفـــع لواءهـــا المصـــلحون وتغنـــى بهـــا الشـــعراء: "وإنمـــا الأمـــم الأخـــلاق مـــا بقيـــت فـــإن همـــو ذهبـــت أخلاقهـــم ذهبـــوا". فهـــي أســـاس الحضـــارة لمـــا لهـــا مـــن فوائـــد جمـــة لأنهـــا وســـيلة للتعامـــل بـــين النـــاس فـــإن صـــلحت أخلاقهـــم عمـــى الخيـــر و الســـعادة وســـاد الأمـــن والوئـــام، وإن ســـاءت أنتشـــر الفســـاد وتحولـــت حيـــاتهم إلـــى شـــقاء. فجميعنـــا يطلـــب الســـعادة ونريـــد الرقـــي بأمتنـــا ولا يهمنـــا مـــن ذلـــك إلا التركيـــز علـــى الجانـــب المـــادي فحســـب، ونتغافـــل أو نتجاهـــل هـــذا العامـــل الرئيســـي بـــل هو الأصل فينا هو الأخلاق.

فـــأي تطـــور وتحضـــر نـــروم ونحـــن مكتفـــين بالإنصـــات فقـــط إلـــى صـــوت نزواتنـــا وشـــهواتنا الحيوانيـــة، وواقـــع حالنـــا يصـــدق ذلـــك مـــن انتشـــار ســـوء الأخـــلاق فـــي شـــتى معاملاتنـــا داخـــل البيت أو في المدرسة أو في العمل.

فبـــالرغم مـــن انتشـــار التعلـــيم ومجانيتـــه لجميـــع شـــرائح المجتمـــع، لكـــن للأســـف التربيـــة منعدمـــة وهـــذا مـــا نلاحظـــه يوميـــا فـــي

أوساط التلاميذ والطلبة الذين يمثلون أجيال المستقبل مما ينذر بضرورة تدارك الأمر وإعادة النظر في منظومتنا التربوية ومناهجها، وهي المؤسسة التي نوكل إليها إصلاح ما فسد وإهداء من ضل.

فنحن أمة الخير وبتزكية الله الصمد في كتابه الكريم وسنة رسوله الصادق الأمين، فكما كان أسلافنا سببا في دخول الناس إلى الإسلام بأخلاقهم ومعاملاتهم الحسنة، فمالنا اليوم أصبحنا على نقيض من ذلك سببا في نفور الناس منا ونعتنا بشتى الصفات الذميمة، كما حدث مع ذلك الأعجمي الذي درس الإسلام وأقتنع به فأسلم وهاجر إلى دار الإسلام ليحي بين أهله فلخص لنا حالنا في مقولته: «الحمد لله أني عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمون".

فأزمتنا بالدرجة الأولى أخلاقية، فإذا كنا فعلا مسلمون حقيقة ونسعى للنهوض بأمتنا حتى ترتقي لمكانة الريادة كما كانت سابقا، فعلينا الالتزام بالفضائل والابتعاد عن الرذائل ليس فقط في بيوت العبادة وفي المناسبات الدينية فحسب

بـــل فـــي حياتنـــا كلهـــا مصـــداقا لقولـــه عليـــه الصـــلاة والســـلام:" الدين المعاملة".

2- **تعريف الأخلاق:**

لغويـــا: كلمـــة الأخـــلاق فـــي العربيـــة جمـــع خلـــق، يقـــول ابـــن منظور: "الخلق السجية والطبع والمروة والعادة والدين.

وفـــي القـــرآن: "إن هـــذا إلا خلـــق الأولـــين"(1)، وفـــي الحـــديث: "إنمـــا بعثـــت لأتمـــم مكـــارم الأخـــلاق أو فـــي روايـــة صـــالح الأخلاق"(2).

أمـــا فـــي الإنجليزيـــة فكلمـــة Moral فهـــي مشـــتقة مـــن الكلمـــة اللاتينيـــة Mores جمـــع Mor وكلمـــة Ethic التـــي تعنـــي الأخلاق أيضا مشتقة من كلمة Ethos اليونانية. (3)

اصـــطلاحيا: فعلـــم الأخـــلاق لـــه عـــدة تعريفـــات منهـــا مـــا يـــرى أنـــه علـــم العـــادات، وهـــو تعريـــف شـــكلي لأن العـــادات تعبـــر عـــن ســـلوك الإنســـان العـــادي. والـــبعض يعرفـــه بأنـــه علـــم الخيـــر والشـــر لأن فلســـفة الأخـــلاق تعمـــل علـــى توضـــيح القـــيم والتمييـــز بينهـــا. وآخـــر يـــرى أن علـــم الأخـــلاق هـــو المعـــايير التـــي تقـــنن سلوك الإنسان وتجعله يسمو روحيا.

علم الأخلاق نظري بحت كما يرى آرثر شبنهاور (Arthur Schopenhauer) مبحث نظري لا يتسم بأي طابع علمي أو تطبيقي مثله مثل المنطق أو مابعد الطبيعة. فالأخلاق لا تأمرنا ولا تفرض علينا أي شيء، وأن حياة الإنسان تمضي دون أن تهتم بالأخلاق التي لا يمكن أن تعطينا ما ينبغي أن يكون. (4)

وهناك من ينتقد هذا الرأي ويرى أن الأخلاق كلية، فهناك جدال حول مسألة الأخلاق كونها نظرية أو عملية، وهناك رأي ثالث يجمع بين النظري والعملي مع التمييز بينهما؛ فالأخلاق النظرية تدرس الضمير والخير والشر والقيم والبواعث والمثل العليا والإرادة والاختيار.

أما الأخلاق العملية فهي تدرس الواجبات المختلفة على الإنسان مثل واجبه نحو نفسه ونحو ربه ونحو عائلته وأصدقائه ووطنه.(5)

2_ مصدر الأخلاق:

بعد تعريف الأخلاق وتكوين نظرة شاملة كونها سلوك إنساني باتفاق الجميع نأتي لمحاولة معرفة مصدرها الحقيقي فقد تعددت الآراء كذلك في تحديد أصلها حسب اختلاف المذاهب والنحل بين مختلف الأمم؛ فعند اليونان ركزوا على العقل كونه الحكم العدل وهو ما يميز الإنسان عن باقي الكائنات فبه كرم وفضل عنها، لأنه به يتم إصدار الأحكام على الأشياء فهو أساس الحكم على الأفعال والسلوكيات؛ كما عند سقراط الذي يرى أن الفضيلة علم والرذيلة جهل، فمعرفة الأخلاق تجعلنا نقبل عليها، ونحث الغير عليها لأنها تمثل الخير الأسمى الذي هو غاية الجميع.

وسقراط يرى أن العقل وسيلة للأخلاق من أجل التوفيق بين المنفعة الشخصية والمنفعة العامة، ويصلح تطبيقها في كل زمان ومكان على عكس السوفسطائيين الذي جادلهم بالمنطق وأبطل نظرتهم الضيقة في تأسيسهم للأخلاق حسب المنفعة الخاصة فقط.

أفلاطون في جمهوريته يقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات:

- طبقة الحكماء تحكمها القوى العاقلة وفضيلتها الحكمة.
- طبقة الجنود تحكمها القوى الغضبية وفضيلتها الشجاعة.
- طبقة العبيد تحكمها القوى الشهوانية وفضيلتها العفة.

ولا يكون الإنسان حكيما إلا إذا خضعت القوة الشهوانية والقوة الغضبية للقوة العاقلة.

أما أرسطو فنظرته أكثر واقعية، فيرى أن تحقيق الخير في الدنيا، لذا فهو يركز على التجربة الإنسانية؛ فقسم الأخلاق: الفضائل العقلية و الفضائل الأخلاقية، وفضل فضيلة التأمل والتفكير النظري لأنهما تسمو بالإنسان إلى مرحلة العلم بالكليات. والفضيلة عند أرسطو أمر خلقي مكتسب ثابت يتولد منه الفعل الفاضل، فالفضيلة تكتسب بالتعود فتصبح يسيرة.

والفضيلة هي التوسط بين الإفراط والتفريط: الشجاعة بين الجبن والتهور، الكرم بين الإسراف والبخل، والتواضع

بين الفضاضة والخجل، والعقل هو المعين الوحيد للتمييز والمعرفة.(6)

كانط(1724-1804م) يرى أن العقل يعتبر الوسيلة التي يميز بها الإنسان بين الخير والشر، وهو المشرع لمختلف القوانين والقواعد الأخلاقية التي تتصف بالكلية والشمولية، معتبرا الإرادة الخيرة القائمة على أساس الواجب الركيزة الأساسية للفعل؛ لأن الإنسان بعقله ينجز نوعين من الأوامر: أوامر شرطية مقيدة (مثل: كن صادقا ليحبك الناس)، وأوامر قطعية مطلقة (مثل: كن صادقا)، فالأوامر الأولى ليس لها أي قيمة أخلاقية فهي تحقيق منفعة، والأخلاق عبارة عن وسيلة لتحقيق غاية.

أما الأوامر الثانية فهي أساس الأخلاق لأن هدفها تحقيق الواجب الأخلاقي. " أن الفعل الذي يتسم بالخيرية الخلقية فعل نقي خالص، وكأنما هو قد هبط من السماء".(7)

إلا أن هذه النظرة إلى قدسية العقل فيها من المثالية ما لا ينطبق فعلا على أرض الواقع، فالعقل قاصر وأحكامه

متناقضة، فالحكم على السلوك يختلف من إنسان إلى آخر؛ فالإنسان ليس ملاك له ميول ونزوات يسعى إلى تحقيقها لها تأثير على العقل.

وهناك من أرجع مصدر الأخلاق إلى المجتمع؛ ما يراه المجتمع حسن فهو حسن، وما يراه قبيحا فهو قبيح، القيمة الأخلاقية من صنع المجتمع

لا الفرد. من رواد هذا الطرح: - دوركايم (1885-1917م) يقول: " إذا تكلم ضميرنا فإن المجتمع هو الذي يتكلم فينا" وكذلك: " إن المجتمع هو النموذج والمصدر لكل سلطة أخلاقية، وأي فعل لا يقره المجتمع بأنه أخلاقي، لا يكسب فاعله أي قدر من الهيبة أو النفوذ".

إلا أن المجتمعات تختلف فيما بينها حتى بين أفراد المجتمع الواحد، فكيف يمكن التسليم كون الأخلاق أصلها اجتماعي.

وهناك رؤية سائدة حتى في الوقت المعاصر مع المذهب النفعي البراغماتي الذي يركز على المنفعة الخالصة للإنسان الذي يسعى دوما إلى تحقيق المنفعة وتجنب الضرر؛ فالإنسان بطبعه يميل إلى اللذة والمنفعة.

إلا أن هـــذا الـــرأي قاصـــر كونـــه لا يميـــز بـــين الثابـــت والمتغيـــر، لا بـــين النســـبي والمطلـــق؛ فـــالقيم الأخلاقيـــة ثابتـــة ومطلقـــة بينمـــا اللـــذة والمنفعـــة نســـبية ومتغيـــرة، فمـــا كـــان لـــذة عنـــد شخص هو شر بالنسبة لآخر.(8)

فهـــذه بعـــض الآراء المتعـــددة فـــي تحديـــد مصـــدر الأخـــلاق، فكـــل فيلســـوف نظـــر للمشـــكلة مـــن زاويـــة خاصـــة حســـب المـــذهب والاتجـــاه الـــذي ينتمـــي إليـــه. فالإنســـان فـــي كينونتـــه متعـــدد الأبعـــاد: عاقـــل، بيولـــوجي، ولا يحـــي إلا ضـــمن الجماعـــة ولـــه عقيـــدة خاصـــة. ولا نجـــد هـــذه الأبعـــاد مكتملـــة إلا فـــي الإســـلام الـــذي أحـــاط وأهـــتم بســـلوك الفـــرد مـــع ربـــه واتجـــاه نفســـه ومـــع الغير.

أي مراعـــاة المصـــلحة الخاصـــة دون إهمـــال المصـــلحة العامـــة؛ ففـــي الشـــريعة الإســـلامية نجـــد القـــيم الأخلاقيـــة تنطلـــق مـــن الإيمـــان ويـــنعكس ذلـــك علـــى الجـــوارح بالعمـــل فـــي تـــرابط شـــرطي، كمـــا جـــاء فـــي عـــدة آيـــات " الـــذين آمنـــوا وعملـــوا الصـــالحات" فـــلا يكفـــي الإيمـــان وحـــده ومـــن اعتقـــد هـــذا فهـــو

ضـــال (فرقـــة المرجئـــة: اكتفـــوا بالإيمـــان ولا يشـــترطون العمـــل) فهذا الاعتقاد باب لكل فساد.

وهنـــاك الكثيـــر مـــن الآيـــات والأحاديـــث المفصـــلة التـــي تحـــث علـــى حســـن الخلـــق والإصـــلاح وتحـــذر مـــن الآثـــام صـــغيرها وكبيرهـــا، وتربطهـــا بالإيمـــان الحقيقـــي، وهـــي قـــيم إنســـانية تتماشـــى مـــع العقـــل وتحقـــق المنفعـــة الخاصـــة والعامـــة؛ غايتهـــا نشـــر الأمـــن والســـعادة للجميـــع دون اســـتثناء حتـــى مـــع الشـــعوب المغـــايرة لنـــا فـــي العقيـــدة والجـــنس، مايصـــطلح عليـــه بلغـــة عصـــرنا مراعـــاة حقـــوق الأقليـــات وحريـــة الاعتقـــاد والعـــيش الكريم للجميع.

3_ضرورة الأخلاق:

موضـــوع الأخـــلاق بـــالرغم مـــن أهميتـــه فلـــيس مـــن الهـــين تناولـــه بالبســـاطة التـــي قـــد يتصـــورها الـــبعض نظـــرا للمـــؤثرات الجانبيـــة والظـــروف المتعـــددة التـــي يعـــيش فيهـــا الفـــرد والتيـــارات الجارفـــة مـــن كـــل حـــدب وصـــوب؛ فقـــد حـــدثت القطيعـــة فـــي الفكـــر الغربـــي بـــين الـــدين والحضـــارة منـــذ عصـــر النهضـــة، وتعويضـــها بالنزعـــة الإنســـانية، فالإنســـان مصـــدر المعرفـــة

والقيم، وعزز هذا الاتجاه قيام الثورة الصناعية التي حققت للمجتمع حياة أفضل. وظهرت مذاهب مادية الحادية هيمنت على عقول الناس كالوجودية والبرغماتية وأصبحت دين من لا دين له. حتى وصل الأمر إلى تأثيرها على كافة دول أمتنا العربية الإسلامية جراء الاستعمار ومخلفاته من التبعية الاقتصادية وهيمنة الدول الكبرى على ثرواتنا الطبيعية لدرجة التدخل في شؤوننا الداخلية ربما لدرجة تحديد سياسة ونمط الحكم.

وعليه فنحن كدول لنا كامل السيادة التي لم تهب إلينا في طبق من ذهب ولكن سقتها الدماء والتضحيات لأناس آمنوا حقا بمبادئ موروثنا الثقافي من لغة ودين، علينا ألا ننساق ونضعف أمام تلك التيارات الهدامة، ليس فقط علينا كعرب مسلمين بل حتى على أهلها، وهو ما نعيشه حاليا من شن الفتن والحروب وتأجيج النعرات الطائفية والأفكار المتطرفة. تحت شعار "الفوضى الخلاقة" فبئس الشعار وبئس أصحابه وكل من سعى في سبيله.

أما شعارنا نحن قوله عز وجل:(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (9)

هم شعارهم الفوضى ورثوه عن سلطة الكنيسة: افعل ماشئت وخذ صك الغفران يفتح لك باب الجنان، ولغة شعب الله المختار والباقي اذبحه وقدمه قربان.

أما شعارنا الإسلام والسلام والرحمة المهداة للعالمين، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب.

لذا فنحن أصحاب الرسالة الإنسانية العالمية علينا تحمل عبء هذه الأمانة من أجل إنقاذ العالم، فكما هم نشروا فوضاهم وحققوا مآربهم اللئيمة والجميع يكتوي بها دون استثناء، علينا أن نكون لهم بالمرصاد وليس بوسائلهم فنحن لسنا مثلهم، بل بتحصين أنفسنا والالتزام بقيمنا في جميع شؤون حياتنا ونكون فعلا كالبنيان المرصوص يشد بعضه البعض فلا نؤتى من بين أظهرنا حتى نصل إلى مستوى

القـدوة الحسـنة لغيرنـا وتكـون أحضـاننا مفتوحـة للجميـع لنحـي في سلام ومحبة ووئام.

ومـن أجـل تحقيـق هـذا المشـروع الحضـاري الأخلاقـي علـى أرض الواقـع يجـب إيجـاد الطـرق والأدوات الناجعـة والفعالـة مـن أشـخاص وهيئـات ومنظمـات رسـمية تضـع فـي برامجهـا ومـن أولـى أولوياتهـا هـذا الهـدف الأسـمى، وكفانـا مـن الخطابـات الديماغوجيـة والمصـالح الضـيقة ودغدغـة المشـاعر كمـا هـو حـال الخطـاب السياسـي فـي كـل المناسـبات و المواعيـد الانتخابيـة؛ الشـيء الـذي يزيـد قـي التنـافس والتطـاحن علـى المناصـب والغنـائم بكـل الطـرق المشـروعة والغيـر مشروعة.

وعليـه نشـير إلـى خطـوتين أساسـيتين لتكـوين المجتمـع الإنساني ذو الخلق:

الأولـى دور الأسـرة فـي تربيـة الأولاد منـذ السـنوات الأولـى؛ فالوالـدين همـا القـدوة حتـى قبـل بلـوغ الطفـل سـن التمييـز، لأنـه يسـمع ويـرى ويتـأثر بـذلك، فعلمـاء الـنفس يؤكـدون علـى أن

شخصية الفرد هي نتيجة مرحلة الطفولة. لذا يجب مراعاة وتهيئة الجو المناسب المتوازن من أجل رعاية سليمة وتربية أخلاقية حسنة.

الثانية دور الدولة في برمجة وتوفير الوسائل لتجسيد المشروع الأخلاقي من خلال جميع المؤسسات الرسمية؛ كالمدرسة والجامعة ودور العبادة والوعظ والإرشاد وجمعيات المجتمع المدني وشتى الهيئات والمنظمات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بما فيها وسائل الإعلام والاتصال وشبكات التواصل عبر ألنت من اجل إلزامها بقانون أخلاقي كشرط أساسي في تأدية مهامها وهوما يصطلح عليه بأخلاقيات المهنة.

4-الخاتمة:

إن مسألة الأخلاق لا تخصنا وحدنا كعرب مسلمين بل الإنسانية كلها على وجه المعمورة، حتى كوكبنا الذي لا يوجد كوكب لحد الآن صالح للحياة غيره تأذى من طغيان الإنسان كمشكلة الاحتباس الحراري لدرجة أن العلماء المتخصصين دقوا ناقوس الخطر، إلا أن الدول الصناعية الكبرى فضلت مصالحها المادية الآنية على خير الإنسانية ومستقبلها.

وأمام هذا الاستعلاء والجبروت لا يسعنا إلا التحلي بالحكمة والدعوة بالحسنى من أجل تحكيم سلطة العقل في تسيير أمورنا والحد من هذا الفساد على جميع الأصعدة.

ولا يتأتى لنا ذلك إلا بإعادة النظر في قيمنا الأخلاقية والالتزام بها ووضعها في مركز الرقيب الحسيب على كل

خطـوة نقـوم بهـا مـن أجـل جلـب الخيـر ودفـع الشـر عـن جميـع الكائنات لأن الحياة للجميع دون استثناء.

فالحيـاة هـي الاتصـال والقـرب بـين العبـد وربـه، ونشـر المحبـة بـين النـاس، كمـا أن حسـن الخلـق يزيـد فـي إكـرام الـنفس وسـماحتها لدرجـة تحويـل العـدو إلـى صـديق وبـذلك ينتشـر الأمـن والأمـان بـين الأفـراد والمجتمـع، ويظهـر التعـاون والتكافـل الاجتمـاعي، وتـنقص حـدة الخـلاف والفرقـة ممـا يزيـد فـي رفـع المعنويـات وحصـاد الايجابيـات مـع تفعيـل الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر ضـمن أسـس وقواعـد نظاميـة ورسـمية تسـهر علـى بـذل الخيـر للنـاس بحـب وسـعادة غـامرة تؤسس لثقافة التسامح والعطاء بين أفراد المجتمع.

الهوامش:

(1) سورة الشعراء، الآية 137.

(2) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم 2349، وصححه السيوطي في الجامع الصغير رقم 2584، وصححه الزرقاني في مختصر المقاصد رقم 184.

(3)Ethic by Maria inelda Pastrana Nabor, P.2, published 2003by : quezon city : katha publising Co.

(4) احمد عثمان، الأدب الإغريقي: تراثا إنسانيا وعالميا، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية، ص 347.

(5) منتدى التوحيد، http://www.eltwhed.com بتاريخ: 2016/12/7م.

لمحة عن الفكر الأخلاقي في الفلسفة اليونانية، فلسفة الأخلاق.

(6) المرجع السابق.

(7) **مقالـــة حـــول موضـــوع الأخـــلاق،** http://www – to pio 2883.guelma24.net/t ، تاريخ الاطلاع: 201/12/7

(8) المرجع السابق.

(9) سورة آل عمران، الآية 110.

قائمة مراجع الدراسة والبحث:

1_القرآن الكريم.

2- الألباني، صحيح الجامع رقم 2349.

3- السيوطي، الجامع الصغير رقم 2584.

4- الزرقاني، مختصر المقاصد رقم 184.

5- احمد عثمان، الأدب الإغريقي: تراثا إنسانيا وعلميا، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية.

6- منتدى التوحيد، http://www.eltwhed.com تاريخ الاطلاع: 2016/12/7

7- مقالة حول موضوع الأخلاق، http://www.guelma24.net/t-2883-to pio

باللغة الأجنبية:

-Ethic by Maria inelda Pastrana Nabor, P.2, published 2003 by :

quezon city : katha publising Co.